

الهوية الوطنية العراقية وآفاق المستقبل

Iraqi identity and future prospects

طلال حامد خليل*، أستاذ بكلية القانون والعلوم السياسية، جامعة ديالى، العراق

تاريخ إرسال المقال: 2020/07/22 تاريخ قبول المقال: 2020/08/02 تاريخ نشر المقال: 2020/11/04

الملخص:

شغل موضوع الهوية المفكرين والكتاب من مختلف الملل والنحل لما له من أهمية في بناء الشخصية والدولة ، ولأن العراق دولة متنوعة من حيث التكوين الاجتماعي ، فقد شغلت مشاريع بناء الهوية الوطنية الدولة العراقية منذ التأسيس عام 1921 ليومنا هذا ، يحاول البحث بيان دلالات مفهوم الهوية الوطنية والاشتغال الفلسفي الذي مثل البواكير الأولى للاهتمام الإنساني بالهوية ، ودراسة أهم التحديات التي واجهت مشاريع الهوية الوطنية ، إذ تم دراسة التحديات على الصعيد الداخلي والتي تضمنت (التحدي السياسي ، التحدي الاجتماعي ، التحدي الاقتصادي) وارتباط هذه التحديات بالتحدي الأمني من جهة ، وعلى الصعيد الخارجي من جهة أخرى ، وقد أفرزت قراءة هذه التحديات استشراف مستقبل الهوية العراقية ، ثم خلص البحث لتحديد بعض التوصيات المهمة في أي مشروع لبناء هوية الدولة العراقية .

الكلمات المفتاحية : الهوية ، العراقية ، المستقبل.

Abstract:

The topic of identity occupied the thinkers and writers of various boredom and bees because of its importance in building the personality and the state, and because Iraq is a diverse country in terms of social formation, the projects of building the national identity have occupied the Iraqi state since its foundation in 1921 to this day, the research attempts to explain the implications of the concept of national identity and work Philosophical, which represented the first early days of human interest in identity, and the study of the most important challenges that faced national identity projects, as the challenges were studied internally, which included (political challenge, social challenge, economic challenge) and the link of these challenges to the security challenge On the one hand, and on the external level on the other hand, reading these challenges has led to an outlook for the future of the Iraqi identity, then the research has

* المؤلف المرسل.

concluded to identify some important recommendations in any project to build the identity of the Iraqi state.

Key words: Iraqi identity, future.

المقدمة:

يعد موضوع الهوية من المواضيع التي لا تتحدد بزمان ومكان معينين لكونه موضوع متجدد ، لذلك كتب فيه العديد من المؤلفات منذ بواكير الفكر الإنساني الأولى إلى يومنا هذا ، تبعا لأهمية الهوية في بناء الشخصية والمجتمع والدولة ، فضلا عن دورها في التقدم والاستقرار والأمن ، ولكون اغلب الدول هي من الدول المتنوعة عرقيا وقوميا ودينيا وطائفيا (Heterogeneous) شغلها هذا الموضوع ، ولأنه من الدول المتنوعة فقد عانى العراق الحديث منذ تأسيسه إلى يومنا من عدم القدرة على جواب سؤال الهوية (من نحن ؟) ، إذ أن حجم التحديات الداخلية والخارجية لبناء الهوية الوطنية كان أكبر من قدرات النخب السياسية والاجتماعية الساعية له .

أهمية البحث:

تبع أهمية البحث مما يعانيه العراق من دعاوى انفصالية ، وانكفاء واضح للمكونات الاجتماعية والثقافية في حدودها الضيقة ، وغلبت الولاء لهذه المكونات على حساب الولاء للعراق ، مما يتطلب وقفة جادة لبحث أزمة الهوية العراقية وتشخيص أهم تحدياتها على الصعيدين الداخلي والخارجي ، ولأن مهمة أي بحث علمي تتلخص بعدم الاكتفاء بعرض المشكلة فحسب ، بل تتطلب قراءة جديّة للإحاطة بها ووضع الحلول لمعالجتها ، خصوصا ان أزمة الهوية العراقية تلقي ظلالها على الحاضر المعاش وما تسببه من عدم القدرة على الاستفادة من مقومات العراق المادية والبشرية ، وعلى المستقبل المنشود للتعايش السلمي بين المكونات الاجتماعية للشعب العراقي لتحقيق الرخاء والاستقرار والأمن ، إذ أن عالم اليوم هو عالم الدولة القوية القادرة على التأثير في محيطها الإقليمي والدولي ، وغياب ذلك يعني استباحة للسيادة العراقية ونهب ثرواته وهجرة عقوله بحثا عن الأمان المفقود .

فرضية البحث:

مفاد فرضية البحث التي نسعى لإثباتها مفادها (أسهمت عوامل داخلية وخارجية في غياب جواب الهوية العراقي من تأسيسه الحديث إلى يومنا هذا ، غير أن هذه التحديات لا تعني استحالة بناء هوية وطنية عراقية لما يتمتع به العراق من مقومات ذلك البناء)

منهجية البحث:

لعرض المشكلة والوصول إلى إثبات الفرضية فقد تم الاستعانة بأكثر من منهج ، إذ أن البحث في تاريخ بناء الهوية العراقية يتطلب الاستعانة بالمنهج التاريخي ، كما أن مجريات البحث قادت لضرورة استخدام المنهج الوصفي التحليل ، فضلا إن التأسيس للبحث قد بني على فرضيات النظرية البنائية

الوظيفية لبحث البنى الاجتماعية ودورها الوظيفي في الهوية ، كما اقتضت الضرورة اعتماد نظرية الصراع لتحليل الحالة الانعزالية للمكونات العراقية .

هيكلية البحث:

قسم البحث الى مبحثين ، في المبحث الأول ومن خلال مطلبين عرضنا الاشتغال الفلسفي بالهوية ودلالات المفهوم والمفاهيم المقاربة للهوية ، أما المبحث الثاني فقد تم تكريسه لبحث تحديات الهوية العراقية الداخلية والخارجية ، واستشراف مستقبل الهوية العراقية ، وفي خاتمة البحث وضع الباحث مجموعة من التوصيات عليها تخدم خلق الهوية الوطنية وتعيد بناء الدولة على مرتكز قوي .
ومن الله العون والتوفيق

المبحث الأول: الاشتغال الفلسفي لتأصيل الهوية ودلالات المفهوم.

مما يمكن الاستنتاج به القول بان مفهوم الهوية الوطنية لا يمكن الولوج إليه من دون أن نقدم تأصيلاً علمياً لمفهوم الهوية ، إذ فرضت الهوية نفسها كموضوع لحقائق متنوعة في علم النفس من منظار مفهوم الذات () ، وعلم الاجتماع في دراسة نمط الأدوار الشخصية وموضوع المهن والصراعات العرقية ، وحلها الانثروبولوجيون من جانب الهوية الأصلية للشعوب والهويات الفرعية ، ونظرت اللاهوتيون انبثقت من مرتكز أساس الشخصية في الهوية الربانية ، وفي علم السياسة شغل موضوع الهوية كواحدة من أزمات النظام السياسي التي ترتبط بها كل الأزمات الأخرى في عملية بناء الدولة ووحدتها ، ولعل الاشتغال الفلسفي يمثل البواكير الأولى ومدخلا لكل العلوم السابقة ، من هنا يجد الباحث أن التقديم للموضوع لا بد أن يستهل بمعرفة الاشتغال الفلسفي ودلالات مفهوم الهوية .

المطلب الأول: الاشتغال الفلسفي في الهوية.

يمكن القول بان مفهوم الهوية من المفاهيم التي شغلت الفكر الإنساني منذ لحظة اقتران الفلسفة بالبحث عن الوجود والجوهر الطبيعي للعالم ، هذا الاقتران الذي عبر عنه الماديون والمثاليون على نحو مختلف ، إذ ذهب الماديون إلى أن أصل الوجود مادي ، بينما كانت رؤى المثاليين الفكرية تميل إلى أنه غير مادي، فضلا عن اقتران البحث عن الوجود واختلافهم بشأنه بمسألة الهوية التي عدت أساس الوجود والنقطة المهمة في معرفته ، وقد شاع في ظلال الهوية اختلاف كبير ، وعلى الرغم من أن البحث لا يتسع لعرض كل الرؤى الفلسفية إلا أننا سنكتفي بعرض أهمها وخاصة تلك التي تركت أثرا واضحا في الفكر المعاصر .

لقد تحدث أفلاطون (427-347 ق.م) إلى السوفسطائي عن الثبات والتغير مما جعله يقول (إن كل واحد من اثنين متغير عن غيره لكنه متطابق مع ذاته) إذ لم يكتفي أفلاطون بمقولة أن الواحد (هو هو)

بل ذهب إلى تحديد الذاتية ، وان عبارة (مع ذاته) تتضمن توسطاً وارتباطاً لتقدم الهوية مخصوصة بالوحدة ، ولكن هذه الوحدة ليست خالية من أي علاقة ارتباطية التي تعد ضرورية في معرفة الذات من خلال الآخر الذي يتميز بذاتية مغايرة ، ولكن لتظهر بوضوح علاقة (ألهو بذاته) وعلاقة (الآخر بذاته) أيضاً ، وبذلك تتكامل صورة الهوية لكيثونة الشخص الموجود ،⁽¹⁾ ، ومما ينبغي الإشارة إليه إن فهم أفلاطون للهوية وربطها بالذات كثيراً ما أثر بفكر المفكرين المحدثين أمثال عالم النفس الأمريكي ورائد أزمة الهوية (أريك أركسون 1902-1994)) الذي عبر عن تطور الهوية من خلال (الذات) ، بل ابعدها من ذلك وصف (أريكسون) الهوية بأنها الفهم الناجز للذات ، فضلاً عن قوله (بأن مفهوم الذات والهوية يمكن عددهما عناصر متداخلة لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر فالهويات جزءاً من مفاهيم الذات والعكس بالعكس)⁽²⁾

استطاع أرسطو طاليس (384-322)⁽³⁾ ، أن يؤطر رؤى فكرية متقدمة في مسألة الهوية من خلال بحثه في العلل الأربع للوجود (وجود الشيء وهويته) (العلة المادية التي تختص بالمادة التي يتكون منها الشيء ، والعللة الصورية فالشيء يتغير بطريقة معينة لأن نموذجاً أو صورته تحتاج إلى تحقيق غرضه ، والعللة الفاعلة وهي التي تشير إلى العامل أو الحادثة التي هي الأصل النوعي للشيء ، وأخيراً العلة الغائية التي توصف بأنها أكثر علل أرسطو تعقيداً وإثارة للجدل للوصول إلى الهوية والتي تقسر التغير من منظور الغرض النهائي والفرض الذي وجد من أجله ليحقق هويته)⁽⁴⁾ ، إن هذه العلل الأربع لوجود الشيء وهويته مهدت الطريق لكي يؤكد أرسطو بأن الهوية هي حاصل عملية تطويرية ، أي أن الهوية لا تتكون بشكل مفاجئ وبدون مقدمات ، فأن الهوية وصورتها التي تكشف عن ماهية

(1) مارتن هايدجر ، الفلسفة ، الهوية والذات ، ترجمة محمد مزيان ، بيروت ، منشورات ضفاف ، 2015، ص 32

(2) Mark R. Leary and June Price Tangany . Hand Book Of Identity. The Guilford Press. New York 2012 P73

(3) انشغل الفلاسفة قبل أفلاطون و أرسطو بالهوية مثل بارميندس أو هرقليطس إذ بحثوا فيما هو ذاته والآخر وكيف يمكن حدوث الاتساق بين التغير والهوية ، وقد بحث هرقليطس (540-475 ق.م) الذي احدث تحولاً في فهم العالم من خلال أيمانته بأنه لا يمكن فهم العالم من دون فهم الإنسان وهويته ، أي سؤاله عن الذات التي تفكر بهذا العالم الذي أقر بحالته المتغيرة واستمرارية حركته ، وتغير هويتها أو بقائها هو الأمر الذي دعاه لقولته المشهورة (لا يمكن للإنسان أن ينزل في النهر الواحد مرتين) في إشارة واضحة لتغير هويته بفعل الجريان . للمزيد ينظر :-

أحمد فؤاد الأهواني ، فجر الفلسفة اليونانية ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ط 1 1954 ، ص 236

(4) روبرت ودفين ، و جودي جروفس . أرسطو . ترجمة إمام عبدالفتاح . القاهرة . المجلس الأعلى للثقافة

المكتملة لأي شيء تظهر تدريجيا وقابلة للوجود الفعلي (الوجود بالقوة) ويكتمل وجودها لتأخذ صورتها النهائية (الوجود بالفعل)⁽⁵⁾.

لقد تم الاستفادة من التفسير الأرسطي للهوية في فهم البناء الحضاري للحضارات الإنسانية ، إذ أن الحضارة وجدت بالقوة وتحولت تدريجيا للوجود بالفعل ، من خلال نوعين من العلل ، الأولى خارجية : لضعف الحضارة السابقة عليها وتفككها وانهيارها ، والثانية داخلية عندما تفاعلت لدى أبنائها معطيات عديدة جعلتهم قادرين على تحويل الكامن من إمكاناتهم إلى قوة إبداع حضاري اكتمل من خلال البناء الجديد وتغيير الصورة التي كانت عليها سابقتها فتشكلت الهوية الحضارية القائمة على الاختلاف ، وهو ما يمكن أن تحدثه عملية التأكيد على الشعور بالهوية الوطنية التي تكون سببا في تقدم الأمم وتميزها عن غيرها ، وهذا ما أكدته (ابن خلدون 1332-1406) عندما رسم دورة حياة الحضارة أو الدولة ومرورها بمرحلة الانحطاط ضمن عمر زمني محدد سببه تحول حضارية الدولة إلى الرفاه الذي يستهلك قوة الدولة ، لتنهض عصبية قبلية (هوية جديدة) وتتدفع لمركز القيادة إيدانا بدولة جديدة .

وفي الفكر الحديث لم يغيب مفهوم الهوية عن الكتاب والفلاسفة ، وقد برز الفيلسوف (رينيه ديكارت 1596-1650) ، إذ يبين في كتابه (التأملات الميتافيزيقية) بأن الهوية تتحدد من خلال الفكر فهو المرتكز الذي تقوم عليه الهوية ، أما كيف يمكن نصل إلى هذا الفكر ، يوضح ديكارت من خلال منهجه القائم على الشك بوصفه خادع للحواس ويخطأ العقل (مثل رؤية السراب على انه ماء ، والتقاطع في الصورة الذي يرسمه العقل بين البحر والسماء ،) وأن ممارسة الشك المنهج توصل إلى اليقين العقلي مجسدا بالفكر ، وما دام الإنسان يفكر فهو موجود ، ويتضح ان ديكارت يقر بان وجود الأنا مرتبط بالتفكير ، وبذلك فإن الهوية مرتبطة اشد الارتباط بالأفعال الفكرية الخالصة والمجردة من كل شك أو فهم خاطئ أو تصور ، وأن الذات المفكرة هي الذات الموجودة .⁽⁶⁾

يعد (ايمانويل كانت 1724-1804) واحدا من الفلاسفة الذين تركوا تأثيرهم في الفكر الأوروبي ، يربط (كانت) ذاتية أي شخص - أي هويته - بالإرادة الحرة ، لكي تظهر علاقة (الهو) بذاته ، وتوسط الحرية في مجمل المفهوم ، يعد إشارة للعلاقة التي تسطر في صلب الهوية ، فالحرية عنده هي ما يميز الذوات العاقلة ، فضلا عن إيمانه بان الهوية أو الذات الشخصية لا يمكن أن تتحقق إلا تحت تأثير فكرة الحرية وهو ما يسبغ على الفرد كونه (كائن حر حقا) ، وهذا التوسط بين الحرية والهوية - كما هو التوسط عند أفلاطون (بين الهو وذاته) - ، يبين أن الحرية هي أساس العقل العملي ، أي

⁽⁵⁾ (إميل بریه ، تاريخ الفلسفة - الفلسفة اليونانية ، ترجمة جورج طرابيشي ، بيروت ، دار الطليعة 1982 ص 258

⁽⁶⁾ للمزيد ينظر التأمل الثاني في : ديكارت ، التأملات في الفلسفة الأولى ، ترجمة ، عثمان أمين ، القاهرة ،

العقل الذي يملك العلية بالقياس لموضوعاته ، فهو ينفي أن يكون العقل العملي الذي يشكل ذاتية الفرد وهويته عقلا فاعلا في وقت يتلقى توجيهاته من الخارج لشخصه ، لأن الذات لن ترجع قادرة مع هذه الحالة لتحديد ملكة الحكم فيها لعقلها ، بل ترجعها إلى دافع من الدوافع الخارجية مما يؤثر على صيرورة الذات وتفاعلها في المجتمع ، وهذه الإرادة يجب أن تضاف لكل الكائنات العاقلة (7)، بمعنى آخر أن رؤية (كانت) رؤية جمعية وليست متعلقة بذات فردية دون غيرها .

تمثلت الهوية لدى معظم الفلاسفة والمفكرين كوحدة وتطابق ونقيض للاختلاف ، ولكن مع ظهور الفكر الهيجلي ، بات تمثل الهوية مقترن بتحليل العلاقة بين الاختلاف والتغاير ، والصراع ، إذ ذهب الفيلسوف جورج فيلهلم فردريك هيجل (1770-1831) إلى ربط الهوية بالوعي ، مغايرا لطرح ديكارت ، وقدم منهجه على أسس (التحول والصيرورة) هذه الصيرورة التي ليس مقدر لها الظهور إلا من خلال الصراع مع الآخر ، ولا غرابة في طرح هيجل هذا لأن كل منهجه الفلسفي قائم على أن الصراع هو المرتكز الأساس للتحول التاريخي ، إذ يذهب للقول بأن تاريخ الإنسانية في كل حلقاته هو تاريخ الصراع من أجل الحرية ، فأن تحقق الذات أو الهوية ناتج من علاقة (الأنا) ب (الآخر) ، فالآخر هو العنوان أو العلامة لثبات الذات الفردية وبيان هويتها . (8) وهو ما يناقضه (أيمانويل ليفيناس 1906-1995) ، إذ يؤكد أن الإنسان لا يبتلع الآخر ولا تمتص الذات الآخر ولا تدخل في حرب معه وذوبانه ، وتتوضح رؤية ليفيناس الإنسانية من خلال دعوته للتعامل مع الآخر بوصفه ذاتا وليس موضوعا . (9)

وهو ما يؤكد (محمد عابد الجابري 1935-2010) حين يربط الهوية وتحققها عبر الآخر الذي يستمر تأثيره بالأمور المتعلقة بمستقبله ويؤكد على ذلك الارتباط بين (الأنا والآخر) بقوله (إن الأنا تتجدد عبر الآخر) ، إذ الآخر حاضر في مراحل تطور (الأنا) فتصبح الهوية في علاقة دائمية في تحديدها بالآخر . (10)

وهناك من المفكرين من رفض مفهوم الهوية جملة وتفصيلا ، فقد عد (ديفيد هيوم 1711-1767) الهوية وهم لعدم اتفاقها مع التغير المصاحب لكل الأشياء ، إذ أن وضع الهوية للموجودات الإنسانية ليس له وجود ألا من خلال التخييل لنصل إلى معنى النفس والذات والجوهر وهذه العملية

(7) (للمزيد ينظر : أيمانويل كانت ، تأسيس ميتافيزيقيا الأخلاق ، ترجمة عبدالغفار مكاي ، القاهرة ، منشورات

الجمال 2002، ص 150

(8) (للمزيد ينظر : هيجل ، فنومينولوجيا الروح ، ترجمة ناجي العونلي ، بيروت ، المنظمة العربية للترجمة

2006 ص ص 362-375

(9) مصطفى كمال فرحات ، ظروف الكينونة بين ليفيناس وهيدجر ، تونس ، دار السحر للنشر والتوزيع

2006. ص 14

(10) (فريد بن بلقاسم ، قضايا الهوية في الإسلام المعاصر ، تونس ، دار سحر 2013 ، ص 134

مرتبطة بالتخيل وحده الذي يوصل التخيل لمعنى النفس المدركة للحب والكراهية والألم والسعادة ، وهذا ما يؤدي إلى القضاء على الفهم الجامع للإنسان .⁽¹¹⁾ فالتعرف على كينونة الهوية هو فضاء التخيل وليس فضاء العقل فتغدو الهوية وهم للهوية .

المطلب الثاني: تعريف الهوية والمفاهيم المقاربة.

إن التعدد والتنوع بدراسة الهوية ترك ظلاله على بيان دلالات المفهوم واتخاذ تعاريف عدة ، ففي اللغة يشير الفعل (هو) بمعنى السقوط من أعلى ، والهوية مصدر لبيان أن الشيء (هو هو ذاته) ، والهوى عند الجرجاني (ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع) والهوية هي (الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة في الغيب المطلق) والهوية السارية في جميع الموجودات (ما إذا أخذ حقيقة الوجود لا بشرط شيء ولا بشرط لا شيء) .⁽¹²⁾

ولفظة الهوية باللغة العربية مصدر صناعي من ضمير المفرد (هو) المعروف بال التعريف والياء المشددة وعلامة التأنيث الهاء ، يقابلها لفظة (Identity) بالانكليزية وهي ذات أصول لاتينية تشير إلى الشيء نفسه ، أو حقيقة الشيء على ما هو عليه من حيث طبيعته للآخر ، ويذهب (اليكس ميكشيللي) في كتابه الهوية إلى القول بان من الصعوبة بمكان تحديد هوية الأشياء في العلوم الإنسانية وتعود الصعوبة إلى التنوع الكبير في العناصر الأولية المكونة للهوية ، فأى تعريف أجرائي دقيق لا بد أن يستوفي السمات الأساسية التي تسمح للتمييز بين الموضوع المراد تعريفه - الهوية - والموضوعات الأخرى التي تجانسه بشكل كبير ، إلا أنه يعرف الهوية بأنها (مجموعة السمات التي تسمح لنا للتعرف على موضوع معين) .⁽¹³⁾

ويعد عالم النفس (اريك أريكسون 1902-1994) من الأوائل الذين اشتغلوا على مفهوم الهوية وبيان أزماتها ، فالهوية لديه (حاصل تفاعل مراحل عمرية زمنية ومكانية تنمو وتستمر بالنمو لتحقيق (الأنا) وتؤثر وتتأثر بالتفاعلات الاجتماعية التي تسهم في صيرورتها)⁽¹⁴⁾ ، ويرى أن الشعور الواعي للهوية يقوم على ركيزتين مهمتين ، الأولى : أدراك الإنسان بأنه مماثل لذاته واستمراريته بالزمان والمكان ، الثاني : أن الآخرين يعترفون له بهذه المماثلة والاستمرارية ، على اعتبار أن الهوية مفهوم سوسيولوجي

⁽¹¹⁾ جورج لارين ، الايديولوجيا والهوية والثقافة ترجمة فريال حسن خليفة ، القاهرة . مكتبة مدبولي 2002، ص 248

⁽¹²⁾ علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني ، معجم التعريفات ، تحقيق محمد صديق المنشاوي ، القاهرة ، دار

الفضيلة للنشر والتوزيع (د.ت) ص 216

⁽¹³⁾ اليكس ميكشيللي ، الهوية ، ترجمة علي وطفة ، دمشق . دار الوسيم للنشر 1993 ص 15

⁽¹⁴⁾ كاترين هالبيرن ، مفهوم الهوية تاريخه وإشكالاته ، ترجمة اليأس بلكا ، مجلة اتجاهات العدد الأول ، 2008

،لذلك يرى أريكسون بأنها عملية حيوية على مستويات الوظيفة العقلية التي من خلالها يتمكن الفرد أن يحكم على نفسه .⁽¹⁵⁾

ويشير عالم الاجتماع الفرنسي (سانسوليو) في كتابه (الهوية في العمل) الى أن الهوية هي تعريف الذات بالذات وهي (مجموعة التمثلات العقلية تتيح للأفراد القدرة على التواصل والاستمرارية في تجاربهم الماضية والحاضرة) وهي ما أطلق عليها هوية الأنا.

أما بالنسبة للهوية الوطنية وهي مهمة بحثنا ، وعلى الرغم بان التأسيس لها يقتضي فهم الهوية الشخصية - كما سبق - ، فإنها امتزجت مع مفاهيم مقارنة (الجنسية ، المواطنة)، إذ الجنسية تأخذ في تعريفها وجهين ، الأول : شكلي تعرف بأنها (وثيقة منظمة بصيغة فنية من قبل السلطة المختصة في الدولة تمنحها لمجموعة من الأفراد بهدف إسباغ صفة المواطنة عليهم ، الثاني موضوعي تعرف معه الجنسية على أنها (رابطة أو علاقة سياسية وقانونية وروحية بين الفرد والدولة تترتب عليها حقوق والتزامات وتنظم شروط منحها وفقدانها وسحبها قانونيا) ، والجنسية وان كانت مقارنة لمفهوم الهوية إلا أن الهوية اعم وأشمل من أن تكون رابطة قانونية بقدر كونها شعورا وإحساسا يتطلب أمور عديدة .

وكذا الحال مع المواطنة الذي هي اقرب لمفهوم الهوية وعامل من عوامل تشكيلها ، ولكنه لا يتماثل معها ، فالمواطنة وان تعددت التعريفات إلا أنها تشير إلى (المساواة في الحقوق والواجبات بين أبناء الوطن الواحد) وهناك من يعرفها (خلق المواطن الصالح) وهناك من عدها رديف للديمقراطية فعرفوها (حق الفرد المشروع في إدارة شؤون الدولة والمشاركة السياسية وحق تقرير المصير) وعرفت أيضا بأنها (عضوية كاملة تنشأ من علاقة بين الفرد والدولة كما يحددها قانون تلك الدولة ، وبما تتضمنه تلك العلاقة من واجبات كدفع الضرائب والدفاع عن البلد وبما تمنحه من حق التصويت وحق تولي المناصب العامة)⁽¹⁶⁾

⁽¹⁵⁾ كاري نادية أمين ، العامل الجزائري بين الهوية المهنية وثقافة المجتمع ، أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة تلمسان الجزائرية 2012 ، ص 34

Mardi J.Horowits .Self –Identity Theory and Research Methods. Journal Of Research

Practice .Vol8 .Issu2.Canda AU press2012

⁽¹⁶⁾ حميد فاضل حسن ، المواطنة وإشكالية المبادعة بين الأطر النظرية والممارسات التطبيقية ، مجلة قضايا سياسية

السنة 2016 ، العددان 45 و46 ، ص 121

وخلاصة القول فإن هناك ارتباط بين المفاهيم الثلاث ، إذ أن الأصل في الهوية ارتباطه بالمواطنة من ناحية الجنسية بوصفها مبدءاً قانونياً ، فضلاً عن ارتباطها بالأبعاد الثقافية للفرد والمجتمع وتتصل بالانتماء السياسي للدولة .

يمكن إذا أن نعرف الهوية الوطنية بأنها (نزعة سلوكية بين أفراد الأمة تؤدي إلى بلورة حالة من التطابق والتماثل فيما بينهم لخلق شعور وطني موحد يحمي ويعزز خصوصيتهم)⁽¹⁷⁾

المبحث الثاني: تحديات الهوية العراقية وآفاق المستقبل.

يرى الباحث الفرنسي (جان ماري بونوا) بأن الوسواس الذي ساد عصره في سبعينات القرن الماضي هو الانطواء والعزلة واختلاف وتمايز الهوية الخاصة بكل إنسان ، إذ فقد معها الإحساس بوحدة الإنسان وهويته الكونية ، وعلى العكس من نظرة (بونوا) أن ما يسود العقد الثاني من القرن الحادي والعشرين هو وسواس خروج الإنسان من أرضه وانفتاحه على الآخر وفقدانه لهويته ، وهذه الوسواس مرتبطة بإشكالية الهوية غير القادرة على جمع الناس ، إذ باتت أزمة الهوية من إشكاليات عصرنا الحالي وهذا ما يقره صاموئيل هنتجتون في كتابه (من نحن) يقول (إن المساجلات عن الهوية صفة متفشية في عصرنا الحالي ، ففي كل مكان تساءل الناس وأعادوا النظر وحددوا من جديد ما هو مشترك فيما بينهم ويميزهم عن غيرهم من الشعوب ، من نحن ؟ وإلى أين ننتمي ؟)⁽¹⁸⁾ . فمن نحن وما التحديات التي تواجه إجابة سؤال الهوية العراقية . هذا ما سنتناوله في هذا المبحث مستشرفين مستقبل الهوية العراقية .

المطلب الأول: تحديات الهوية العراقية وآفاق المستقبل

لقد تم وضع الحجر الأساس للدولة العراقية الحديثة على نتيجة الحرب العالمية الأولى واندحار الدولة العثمانية ، إذ كان مؤتمر القاهرة برئاسة البريطاني (ونستون تشرشل 1847-1965) في 12/3/1921 قد أرسى معالم الدولة الحديثة وقال تشرشل (إنني آمل أن يصبح العراق في وضع يسمح له بأن يكون دولة مستقلة تربطها ببريطانيا صداقة ومواقف ايجابية من مصالحها التجارية من دون أن نضع أي عبء على وزارة الخزانة) ، فقبل هذا التاريخ كان الحديث عن العراق ينصرف إلى الولايات العثمانية ، وكان البريطانيون يطلقون عليه ميسوبوتاميا (أي بلاد ما بين النهرين) ، ولكن بعد هذا التاريخ أصبح أسم العراق متداولاً في المكاتبات والإعلام البريطانيين ، ولم تكن المشكلة في جغرافية الأرض وحدودها السياسية فحسب ، بل كان لب المشكلة كامن في تنوع المكونات الدينية والقومية

⁽¹⁷⁾ أحمد غالب شلاه ، الهوية الوطنية العراقية - دراسة في إشكالية البناء والاستمرار ، بغداد ، مركز العراق

للدراسات 2018 ، ص 40

⁽¹⁸⁾ صاموئيل هنتجتون ، من نحن - المناظرة الكبرى حول أمريكا-، ترجمة أحمد مختار الجمال ، القاهرة ، المركز

القومي للترجمة 2009 ، ص 44

والعشائرية وعدم قدرتها على تكوين هوية موحدة محسوسة لدى العراقيين ،وعانى العراق من تكوينه إلى يومنا هذا إلى غياب الهوية الوطنية ، وان علل ذلك تحديات داخلية وخارجية ،

1- التحديات الداخلية :-

أ- التحدي السياسي :-

تنشأ أزمة الهوية عندما تكون التناقضات بين مكونات الدولة الاجتماعية الأصلية والفرعية على أشده ، وعندما يكون هذا التوتر سببا في شلل طاقة الفعل والقلق الدائم ، فإن بناء أية دولة مرتبط بأشد الارتباط بقدرة النخب السياسية على صناعة الهوية ،ولعل العراق وفي مراحل تاريخه الحديث واحدا من الدول التي عانى من عدم القدرة على بناء الهوية منذ تأسيسه في العام 1921 إلى يومنا هذا ، فلم تتجح كل الحكومات المتعاقبة على اختلافها وتنوع مسمياتها وأنظمتها السياسية (ملكي ، جمهوري شمولي، برلماني ديمقراطي) من تحديد جواب لسؤال الهوية.في كتابه (مجتمع اللادولة) يوضح (بيار كلاستر 1977-1934) دور السلطة السياسية في بناء هوية الدولة ويقر بان المجتمعات البدائية التي لم تعرف نوع من أنواع السلطة ظلت مجتمعات فوضوية انفصالية ، أما المجتمعات التي تجاوزت حالة الفوضى وتوصلت إلى نموذج في الانتظام الجماعي المعبر عنه بواسطة السلطة فقد تجاوزت الحالة الانفصالية ووصلت إلى وحدة مجتمعية ، فعملية بناء المجتمع الموحد وصيرورة هويته لم يكن أمامها خيار سوى خيار السلطة التي تهيمن وتسيطر على المجتمع. ويضع للسلطة وظيفتين لبناء الهوية الوطنية تتطابق مع نوعين من الطاقة ⁽¹⁹⁾:-

الأولى : ويسمىها (الطاقة الفاعلة) التي تتجم بشكل مشترك عن الجماعة لبلوغ أهداف منشودة.

الثانية : ويطلق عليها (الطاقة الحافظة) التي تبذلها الجماعة للمحافظة على ائتلافها واتساقها ووحدتها.

مثل النظام السياسي الملكي أو لمشاريع الهوية الوطنية وسعى لبناء نموذج الدولة / الأمة ، ولكنه لم يستطع استكمالها ، بل أنه كان وجها لوجه مع أزمة الهوية العراقية لعدم تجانس مكونات الشعب العراقي ، وكان كل مكون اجتماعي منعقل على نفسه بسبب السياسات التي مارستها الدولة العثمانية ، إذ خضع الحضر إلى الشريعة الإسلامية ، وكان أهل الريف غارقين في عادات وتقاليد وأعراف العصبية القبلية ، فيما كان المثقفون متأثرين بالثقافة التركية ، ولم يكن الوعي العربي قد وصل لما وصل إليه في بلاد الشام ، وهذا لا يعني بأن النظام الملكي لم يسعى لتأسيس الهوية الوطنية ، بل أن(الملك فيصل

⁽¹⁹⁾ بيار كلاستر. مجتمع اللادولة. ترجمة محمد حسين ذكروب. بيروت. الدار العربية للدراسات والنشر. 1981.

1883-1933) الأول كان محملاً بهوم نجاح مشروعه الدولة / الأمة ، من خلال جمع التنوعات الثقافية وصهرها في كيان سياسي موحد وخلق أمة موحدة ، وقد اعتمد لإنجاح مشروعه على آلتى خلق نظام تعليمي موحد وفرض التجنيد الإلزامي - ومما يلاحظ بان هاتين الآلتين ظلتا متلازمتين مع الأنظمة السياسية العراقية اللاحقة - . ولكن مشاريعه اصطدمت بالحالة المجتمعية العراقية التي أتمت بالثبات ، فما كان من الملك فيصل الأول إلا أن يعبر عن أسفه لعدم اكتمال مشروعه بوثيقة سرية قال فيها (أقول وقلبي ملآن أسى ، انه باعتقادي لا يوجد شعب عراقي بعد ، بل توجد كتلات بشرية خالية من أي فكرة وطنية)⁽²⁰⁾

أطاحت ثورة تموز 1958 بالنظام الملكي وإعلان العراق نظاماً جمهورياً ، وكان (عبدالكريم قاسم 1914-1963) جادا في بناء هوية وطنية عراقية ، إلا أنه اصطدم بصعود التيار القومي الذي ترعّمه (عبدالسلام عارف) الذي طالب بالوحدة مع الجمهورية العربية المتحدة (سوريا ومصر) فتوجهت صياغة الهوية من هوية وطنية إلى هوية قومية ، وبهذا الصدد كتب (تشارلز تريب) في مؤلفه (صفحات من تاريخ العراق) (إن الرجلين قاسم وعارف لم يكونا مختلفين شخصا فحسب ، بل إنهما وقعا في شرك مسألة الهوية العراقية التي ما زالت بلا جواب ، فاختلغا حول ما إذا كان العراق دولة / أمة ، أو جزءا إداريا من امة عربية اكبر حجما)⁽²¹⁾ ، وتم تقويض مشروع عبدالكريم قاسم هو الآخر لوضع جواب للهوية .

كان مجيء البعثيين للحكم في عام 1963 والانقلاب في العام 1968 منطلقا لغلبة الاتجاه القومي في رسم إجابة الهوية متجاوزا التنوع القومي العراقي ، إذ ذابت الدولة في السلطة ، وذابت السلطة في الحزب ، وتم تذويب الحزب في شخص (صدام حسين 1937-2006)، الذي اقتراف ممارسات هددت الوحدة الوطنية ، من خلال محاربة المكونات الاجتماعية مثل الكرد لبسط نفوذ الدولة المركزية ، وترحيله لأكثر من مليون عراقي من الشيعة العرب والكرد الفيلية (الأكراد الشيعة) بدعوى أنهم من أصول غير عربية ، وكان تأثير ذلك كبيرا وأدى لانفصال مكونات المجتمع عن الدولة ، وانفصال الفرد عن المجتمع ، رافق كل ذلك اختصار صدام العالم السياسي إلى دوائره العائلية الضيقة وتحولت الدولة / الحزب إلى الدولة / العائلة ، الأمر الذي تبلورت معه الهوية العراقية وصياغتها بصورة عبادة الشخصية / الفرد فتحولت الهوية أخيرا إلى الدولة / الفرد . فحل الولاء للفرد محل الولاء للدولة⁽²²⁾

⁽²⁰⁾ للمزيد ينظر حنا بطاطو ، العراق - الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام

الجمهورية -، ترجمة عفيف الرزاز ، الكتاب الأول ، طهران ، منشورات فرصاد ، 2005 ، ص 44

⁽²¹⁾ سعد سلوم ، مصدر سبق ذكره ، ص 56

⁽²²⁾ حميد فاضل حسن ، مصدر سبق ذكره ، ص 60

كان للحصار الاقتصادي الذي فرض على العراق على أثر غزوه للكويت عام 1991، والحالة المعيشية التي ضاق بها العراقيون ذرعا، أحد العوامل الرئيسة لأحياء الهويات الفرعية والتخلي عن الهوية الوطنية التي بدت ضائعة وعدم قدرتها على الوجود والاستمرار، فانسحبت وتركت الهويات الفرعية لتحل محلها. فضلا عن سعي السلطة في محاولة بناء الهوية بطرق قسرية من خلال تغيير الولاءات بالقوة ومحاربة كل المعتقدات والثقافات المحلية المتأصلة في ضمير المكونات الاجتماعية العراقية، وسياسات التهجير القسري والتعريب وغيرها، هذه السياسات التي اختزلناها فيما سبق أدت إلى ضياع الهوية الوطنية العراقية. وسببت أيضا باحتلال العراق من قبل الولايات المتحدة الأمريكية عام 2003.

إن دور السلطة السياسية ومن خلال تبنيها لطرق الاستبداد والعنف سبيلا لإدارة التنوع العرقي والطائفي والديني يؤدي إلى تشويه الهوية وتشتتها، وهذا ما يؤكد فارس كمال نظمي بقوله (أن الهوية الوطنية لدى الفرد العراقي تعرضت لكثير من التشويه جراء ممارسات السلطة السياسية لأنها لم تنبع من ذواتهم بشكل تلقائي بل تمت من خلال ما مارسته الدولة ونخبها المؤطرة بأيدولوجية اقصائية مارست عمليات الصهر والدمج القسري لجميع مكونات الشعب العراقي على اختلاف أطيافه العرقية والمذهبية والدينية، فان هشاشة هذه الهوية هو العامل الأساس وراء ديمومة العنف في الوضع السياسي والاجتماعي العراقي)⁽²³⁾

إذا كانت السياسات السابقة لم تستطع الإجابة على سؤال الهوية (من نحن)، فان ما حل بالعراق بعد عام 2003 كان له عميق الأثر في تفتيت مشروعها لبناء دولة قوية تمتلك كل مقومات القوة والتأثير إقليميا ودوليا، إذ عانت عملية بناء السلطة السياسية في العراق بعد 2003/4/9 من مشكلة جوهرية بإعلان الحاكم المدني (بول بريمر) عن تأسيس مجلس الحكم الانتقالي في العراق وفقا لمبدأ التمثيل النسبي للقوميات والأديان والطوائف لضمان تمثيلها والاعتراف بوجودها ليتأسس المجلس على قاعدة المحاصصة القومية والدينية والطائفية، إذ سببت بانقسام أبناء الشعب، وكان يمكن لمرحلة ما بعد سقوط النظام السياسي الشمولي السابق، من إصدار دستور جديد دائم لعام 2005، وإجراء انتخابات ديمقراطية برلمانية وتشكيل حكومة منتخبة أن يكون مدخلا حقيقيا مباشرا لإعادة بناء الدولة العراقية ونظامها السياسي بعيد عن قاعدة المحاصصة وسلبياتها، ولكن واقع الحال كان خلاف ذلك، إذ استمر واتسع نطاق التأسيس على هذه القاعدة مما تسبب في تشويه هذا البناء، وتشكلت كل الحكومات العراقية بعد 2003 عليه من خلال توزيع مناصب الرئاسة الثلاث (الدولة، الحكومة، البرلمان) مما جعلها

⁽²³⁾ فارس كمال نظمي، المحرومون في العراق هويتهم الوطنية واحتجاجاتهم الجمعية، بيروت، دار ومكتبة

حكومة تقوم على حكم الأغلبية المتوافقة وأدى إلى ضعف الدولة وتقوت الولاءات الفرعية وضاع مشروع الهوية في ظل الديمقراطية،⁽²⁴⁾

فضلا عن إسهام المحاصصة بتكريس حالة التنوع وتأطيرها شرعيا ، وبدأت مؤسسات الدولة تتوَّطر الانقسامات العرقية والدينية والطائفية ، وقامت التعددية الحزبية على استغلال الهويات الفرعية بوصفها أهم محرك للتعبئة الجماهيرية ، وتحول بناء الهوية إلى استراتيجية للكسب السياسي الحزبي ، وبرزت في ظل ذلك الدولة / المكون ، والدولة / الطائفة ، والدولة / العشيرة ، إذ أن ضعف الدولة وصراع المكونات جعل الفرد يلجأ لهويته الفرعية ويتمسك بها . فأعاد المواطن العراقي ارتباطه بالقبيلة والطائفة والقومية ليحقق من خلالها الأمان حين عجزت الدولة عن ضمانته ،

ب- التحدي الاجتماعي :

إن مادة الهوية وبناء الدولة الموحدة القوية ، يتطلب وجود شعب مؤمن بهدف مشترك واحد رغم تنوعه ، وهي ما يعرف بالإرادة الوطنية التي ترجح كفة الوطن على باقي الانتماءات سواء القومية أم الدينية أم الطائفية ، إذ يؤكد ذلك (روبرت ماكيفر وشارلز بيدج) فالهوية الفرعية عندهم قد تقوم في أحد أشكالها على فكرة الارتباط بأرض الآباء والأجداد وارض الإقامة الفعلية ما ينتج عن ذلك الإيثار الوطني على القومي وتأكيد الإرادة من اجل الوطن ، وتلك عاطفة إنسانية وإحساس وجداني رفيع يقوم على تهميش الأنانية الفرعية والغائبا ، فنقوى الروابط عوضاً عنها لتؤسس الهوية الجامعة في حدود الوطن أجمع⁽²⁵⁾ وعلى الرغم من أهمية العامل الاجتماعي في بناء الهوية الوطنية ، إلا أننا لا يمكن أن نعهده السبب الرئيس لغياب جواب الهوية العراقية ، بل انه مرتبط بأسباب أخرى أسهمت في توضيح دوره ولتؤسس على أن الأزمة هي أزمة تفاهم وحوار مع الآخر ، فالتنوع مصدر اغناء للهوية فيما لو تم الافادة منه في بناء مواطنة ، لذلك يمكن القول انها أزمة مواطنة قبل كل شيء ، فضلا عن كونها أزمة بناء اجتماعي لم يستطع الاندماج وتكوين شعب موحد ، ذلك لأن العراق من الدول المتنوعة قوميا ودينيا وطائفيا ولغويا (Heterogeneous) والتي لم تصل إلى القدرة على تبني ذلك التنوع في بناء هوية وطنية ، إذ غالبا ما كانت المكونات الاجتماعية (عرب ، أكراد ، تركمان ، شبك ، سنة ، شيعة ، مسيحيين ، وأقليات أخرى) معزولة عن بعضها البعض ، مما حال دون أن تمتزج الثقافات المترسحة منها من إتمام مشروع الهوية ، وقد اكتفت كل الأنظمة السياسية بالتعامل مع هذه المكونات - كما سبق ذكره - بمنحى التعبير عن الذات ، إذ تم صياغة الدولة بصيغة وطنية مشوهة ، أو قومية مجتزأة ، أو

⁽²⁴⁾ علي عباس مراد ، حول بعض مشكلات إعادة بناء الدولة في العراق ، بغداد ، بحث منشور في دوار مؤتمر

بيت الحكمة (بناء الدولة) 2012 ، ص 119

⁽²⁵⁾ روبرت ماكيفر وشارلز بيدج. المجتمع. ترجمة د. السيد محمد العزاوي وآخرون. القاهرة. مؤسسة فرانكلين

للطباعة والنشر 1971. ص 561.

دينية مقتصرة ، فكان تعبير المكونات عن ذاتها مرتبط بوطنية تتهم الآخر بعدم الوطنية ، أو قومية ترغم الآخر على قبول القومية المسيطرة ، أو دينية تكفر الآخر وتعلن البراءة منه .

لقد رسمت دوائر (الأنا والآخر) و (نحن والهم) وباتت سمة مميزة للبناء الاجتماعي العراقي ، ولم تكن المكونات السبب الرئيس في رسم تلك الدوائر بقدر التراكمات التاريخية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، داخلية وخارجية ، أسهمت بدرجات متفاوتة في التعبير الذاتي وأثرت في بناء الهوية الوطنية وشكلت تحدياً خطيراً لها . إذ يقول حسن العلوي (إن قومية الدولة كانت مسئولة عن عدم نمو وتطور الوطنية العراقية على غرار الوطنية المصرية حيث يجتمع المختلفون في العنصر والدين على مشاعر الولاء للوطن المشترك)⁽²⁶⁾.

لقد سعت المكونات الاجتماعية العراقية لخلق العقل الجمعي الذي يشير حسب (غوستاف لوبون 1841-1931) إلى (الاستجابة اللاعقلانية لما تروده الجماعة) ، والذي يعد من أهم معوقات بناء الهوية ، إذ ذابت شخصية الفرد بشخصية الجماعة العرقية أو الدينية أو الطائفية أو العشائرية التي قد لا تتفق مع المكونات الأخرى وعقلها الجمعي ، مما أنتج أنماطاً سلوكية ترسم دوائر للفصل بين كل المكونات التي تخلق والحالة هذه قدسية الانتماء للمكون لما توافره من أمن وحرية وتكافل للفرد ، وتنتفي لديه أهمية الهوية الوطنية . فضلاً عن طبيعة العلاقة بين المكونات الاجتماعية العراقية التي غلب على علاقتها صفة الصراع تبعاً للإخفاق الذي رافق عملية إدارة المكونات ، واتسم هذا الصراع بحديثه ولعل الصراع بين الهوية الكردية والهوية العراقية خير دليل على ذلك .

لقد غلب صراع الهويات الفرعية الهوية الوطنية ، مما أدى إلى تصاعد الهويات الاثنية ، حتى غدا التصور الاثني للهوية هو الغالب ، فضلاً عن الرابطة الاثنية القائمة على الدم وهي رابطة عصبية جاهلية تقوم على مبدأ (أنصر أخاك) وهو مبدأ خطير يثلم كثيراً من بناء الهوية الوطنية التي تقوم على مبدأ الأهداف والمصالح المشتركة لأبناء الوطن الواحد ، فأصبح الولاء للمكون وعده القيمة العليا التي يسعى لها الفرد محل الولاء للدولة ، والأخطر من ذلك كله ان هاجس الصراع الاثني في العراق دفع الاثنية الأضعف أو الأقل عدداً إلى الاتكاء على الآخر سواء كان الآخر هذا من قوميتها خارج حدود الدولة ، أم من غير أثنيتها مما يعد انتهاكاً وتجاوزاً على الهوية الوطنية .⁽²⁷⁾

أن أزمة الهوية العراقية تعيش اليوم في أقصى درجاتها وذلك لافتقارها إلى الروح الوطنية المقترنة بالإدارة الرشيدة لحلها وإيجاد الجواب لسؤال الهوية.

⁽²⁶⁾ حسن العلوي ، دولة الاستعارة القومية من فيصل الأول إلى صدام حسين ، لندن ، دار الزوراء 1993 ،

⁽²⁷⁾ حميد فاضل حسن ، مصدر سبق ذكره ، ص 71

ج- التحدي الاقتصادي:

قدم عدد من الاقتصاديين تقسيمات عدة للبنيات الاقتصادية ودورها في تكوين الهوية الوطنية للدولة وديمومتها، ومنهم الاقتصادي الألماني (شمولير Schmoller) الذي يرى أن أية أمة لا بد أنها مرت بأربع مراحل لتكون هويتها، وتلعب البنى الاقتصادية دوراً هاماً وضرورياً بمراحلها التطورية لبناء الأمة وتماسكها البنوي لإنتاج الهوية وهي: (28)

1. مرحلة الاقتصاد المغلق (ليس هناك مبادلات).
2. مرحلة الاقتصاد الحضري (يؤدي إلى ميلاد الأسواق واستقرارها وتأسيس المدن).
3. مرحلة الاقتصاد الوطني (ترتبط الأقاليم بعضها ببعض لخلق كيان يتميز بالتجارة والمالية).
4. مرحلة الاقتصاد العالمي (تدخل الأمة بعد وحدتها في مبادلات مستمرة مع وحدات سياسية (أمم أخرى)

ويستنتج (كينيث ويهر Kenneth Weahr) الذي درس بناء الهوية الوطنية في سويسرا وكندا وأستراليا، بأن هناك نوعين من العناصر التي تحقق القاعدة لبناء هوية الدولة ووحدتها، نوع يمهد للاتحاد ويشمل المشاركة السياسية وتمائل الأنظمة والترابط الجغرافي، ونوع إغرائي يشمل الدفاع الموحد والرغبة في الاستقلال، ويعد الأمل بالتحسن الاقتصادي دافع هام يدفع المكونات لتتنظم في وحدة تمكنها من خلق حالة من الرفاه والرخاء لمواطنيها ويضع هذا الأمل من بين العناصر الأساسية للنوع الإغرائي الذي يدفع المواطنين لإعلاء الوطن محل القومية أو الدين أو العرق أو الطائفة (29).

من البديهي القول بأن تحليل البنية للاقتصاد العراقي تكشف عن تمحوره حول (النفط) مما أدى إلى انقسام الاقتصاد إلى نوعين، الأول: يرتبط بالنفط استخراجاً وتصديراً، والثاني: يضم باقي القطاعات الاقتصادية التي تتسم بالتخلف وعدم قدرتها على المنافسة سواء في السوق المحلية أو الدولية فطغى الاقتصاد الريعي (30) الذي رافق العراق منذ نشوئه الحديث إلى يومنا هذا، فإن اكتشاف النفط وتسويقه تجارياً كان مبكراً على تشكيل الدولة التي لم تتكامل مؤسسياً وقيماً، إذ أن جهاز الدولة القليل الخبرة

(28) فتح الله ولعلو، الاقتصاد السياسي، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1998، ص 76

(29) Kenneth Weahre, Federal Government, Oxford university press 1964, p156

(30) يعد مصطلح الريع من المصطلحات التي تشير إلى شكل من أشكال الاعتماد على تكوين الوفرة المالية على مصدر واحد لسد النفقات الحكومية، كالاعتماد على النفط، مما ينتج تحكم الدولة في إنتاجه وتسويقه وطرق إنفاق عوائده داخليا وخارجيا، وإن أول من استخدم مصطلح الريع هو آدم سميث في كتابه (ثروة الأمم) بوصفه صورة من صور التحصيل المالي، غير أن كارل ماركس في كتابه (رأس المال) يوصف بأنه أول من استخدمه للتعبير عن شكل من أشكال الاقتصاد

اضطلع بإدارة الثروة النفطية وقيادة التنمية التي تتطلب توزيعاً عادلاً للثروة ، ولكن الذي حدث في المسار التاريخي للعراق هو عدم توظيفه للقطاع النفطي ومردوداته المالية الضخمة لبناء اقتصاد متنوع وتنمية شاملة . فلم يكن هناك توزيع عادل للثروة الوطنية ، ولم تكن الفرص الناتجة عن الإنفاق العام تراعي المساواة بين جميع المواطنين ، الأمر الذي أدى إلى فقدان الأمل والثقة بالمجتمع الوطني ، وبات المواطن العراقي يشعر بأنه مجرد رقم على بطاقة الجنسية .

ولم تكمن المشكلة في التحدي الاقتصادي بما تقدم فحسب ، بل غياب الرؤية الاقتصادية للتخطيط والتنفيذ وسيادة الفساد في المشاريع أدى إلى تعطيل جزء مهم سواء من الثروة المادية أم البشرية والتي انعكست على ظاهرة البطالة ذات الأرقام المخيفة ، وانعزال المواطن بل واغترابه عن المجتمع ، اغتراب جعله لا يؤمن بالهوية الوطنية غير القادرة على تحقيق تطلعاته في العيش الكريم وتوفير أبسط متطلباته ، وتراجعت الخدمات المقدمة للمواطن وفي المجالات كافة مما دفعه أما للانعزال والاغتراب والهجرة ، أو الركون إلى الولاء الأضيّق الذي يمكن أن يوافر له فرصة العمل وتحقيق ما يتمنى .

ولعل الإشكالية الأكبر التي أثرت على بناء الهوية الوطنية هي غياب الرؤية الاقتصادية أو بمعنى أدق نوع الاقتصاد العراقي أو هويته (رأسمالي ، اشتراكي ، إسلامي) فهو خليط هجين بين الأنواع الثلاثة مما أدى إلى غياب التخطيط السليم في أغلب مشاريع الدولة ، وغياب شبكة العلاقات ، فان من المعروف بان الاتصال بين مكونات المجتمع اقتصادياً يعزز من الجماعية ويعزز من الانتماء الذي يشعر المواطن معه بتحقيقه للكفاية الذاتية من خلال هذه العلاقة ، فضلاً عن التنوع والاختلاف الاقتصادي الذي يقود إلى الاندماج ، ويجعل منه عملية تكاملية ، وهذا ما يخدم حركة السوق والعملية الإنتاجية من جانب ، كما أن هدف الاكتفاء سوف يجعل عملية الاندماج الاقتصادي عوامل دافعة لتماثل وانسجام الاختلاف القومي في أجزاء الدولة من جانب آخر⁽³¹⁾.

2- التحديات الخارجية:

نستطيع القول بأن تاريخ العراق الحديث والمعاصر قد مر بمراحل حاسمة فيما يتعلق بهويته الوطنية ، وكان موضوع الهوية مثار للجدل في مراحل الاصطدام (بالآخر) ، إذ أن هذا الاصطدام حدث في تاريخ العراق مرتين ، الأولى : احتلال العراق من قبل بريطانيا والذي كان ميلاد العراق الحديث ، والثانية : كان الاحتلال الأمريكي للعراق ، فإذا كان الاصطدام الأول قد أسس للهوية العراقية ، فإن الاصطدام الثاني قد أجهز على الهوية الوطنية العراقية ، من دون أن ننفي مسؤولية السياسات الخاطئة التي اعتمدتها النخب السياسية وفقاً لما بينا آنفاً ، فان تحليل بسيط للخطاب الأمريكي بعد الاحتلال يوضح زرعه لإسفين صراع المكونات ، ففي معرض خطابه قال الرئيس

.Ibid: pp. 157-158⁽³¹⁾

الأمريكي بان (أعمال التمرد ضد القوات الأمريكية قد جرى من الأقلية السنية التي تمتعت بالقوة في ظل النظام السابق) (32) لا بل الأنكى من ذلك فقد عمدت قوات الاحتلال إلى خطاب تقسيمي غير موحد من خلال ما قام به الحاكم المدني (بول برايمر) - كما سبق - من تأسيس العملية السياسية برمتها على أساس اثني وقومي وطائفي . فضلا عن زرع بوادر الانشقاق من خلال الاعتراف الأمريكي بوجود مناطق متنازع عليها غير خاضعة لسلطان الدولة المركزية وتثبيت ذلك دستوريا ، الأمر الذي ترك ظلاله على طبيعة العلاقة بين العرب والكرد بخلق مناطق فصل بينهما .

إن تدخل دول الجوار في العملية السياسية ومخرجاتها (الجمهورية الإسلامية الإيرانية ، المملكة العربية السعودية ، تركيا) ودعمها سرا وعلنا للمكونات الاجتماعية التي تطمح في صعودها كان له عميق الأثر في صياغة التوترات بين القوميات والطوائف العراقية وعاملا مؤثرا في الهوية الوطنية ، إذ باتت مكونات الشعب العراقي تمثل الاتجاه للخارج لشعورها بعدم القدرة على أن تصل إلى ما تصبوا إليه من دون ذلك الدعم ، ولعل مدعاة ذلك هو غياب الأمن المجتمعي الداخلي الذي جعل المكونات (شيعية ، سنية ، تركمانية ، كردية ، مسيحية ، ايزيدية وغيرها) ترتمي للطرف الخارجي من اجل المحافظة على بقائها مؤثرة في العملية السياسية .

إن تحديات الهوية الوطنية سواء كانت داخلية أم خارجية ارتبطت ارتباطا وثيقا بالتحدي الأمني الذي ترك ظلاله على مجمل الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي في العراق ، إذ أن غياب الأمن أسهم في عزل المكونات المجتمعية وركونها إلى المكون (القومي ، الديني ، الطائفي ، العشائري) وتسلل الأطراف الخارجية للتأثير .

المطلب الثاني: مستقبل الهوية العراقية.

إن عملية استشراف المستقبل تعد من عمليات الاجتهاد العلمي الذي يرمي إلى صياغة مجموعة من (التنبؤات المشروطة) ، والتي تشمل المعالم الرئيسية لأوضاع مجتمع ما ، لانطلاقها من بعض الافتراضات الخاصة حول الماضي والحاضر واستكشاف الأثر لدخول عناصر مستقبلية على المجتمع ، وبهذا الشكل فان عملية البحث في دراسة مستقبلية لا تستبعد أيضاً أمكانية الكشف عن نوعية التغيرات وحجمها لتشكل المستقبل ، وهذا يقتضي فهم الحاضر بأدق تفاصيله ومدى قدرته على الانسجام مع متغيرات ممكنة الحدوث

وفي مسألة الهوية العراقية وبعد استحضار مشاريعها منذ تأسيس الدولة العراقية الحديثة 1921 إلى

(32) طارق محمد طيب القصار ، أثر العامل الخارجي في المواطنة ،الموصل ، مركز الدراسات الإقليمية ،

المرحلة التي نعيشها ، ينبغي أن نرسم المستقبل وفقا للمستقبل القريب ⁽³³⁾ الذي يمكن استشرافه بثلاث مشاهد كالتالي :-

1- ألتجاهي الخطي : وهو الذي يقضي بديمومة سيطرة متغيرات الوضع الحالي ،التي تتضح بفقدان أهم حلقة من حلقات التغيير لخلق الهوية الوطنية وهي غياب الإرادة ، فمن المعلوم أن الانتقال من المشكلة إلى حلها يتطلب الوعي بحقيقة المشكلة لتتكون الإرادة في تغييرها نحو الأفضل ، فمثلا إرادة التنمية تتطلب الوعي بالتخلف وكيفية محاربته ، والتكوين المعرفي يتطلب الوعي بالجهل لتتكون إرادة المعرفة ، وهذا ما اعتمدناه في محاور البحث ، فان جواب الهوية يتطلب الوعي بالتحديات التي يواجهها من خلال كل التحديات آنفة الذكر ، والتي اسست لسيادة مشهد المتعدد في ظل الواحد ، واستمرار أزمة الهوية التي تمر بمنعطف خطير من خلال الدعوات الانفصالية ، والأيمان بالعمق الخارجي لمكونات المجتمع العراقي ، واستفحال الفساد وانفلات السلاح ، واللجوء إليه في كل نزاع ⁽³⁴⁾ بسبب غياب العقلانية في إدارة الأزمات، أو كما وصف احد الزعماء القبليين (إذا غضب غضب له ألف سيف دون أن يسأله سبب غضبه) ، ليكون التمسك بالولاء القبلي فوق الولاء الوطني ، واستمرار سياسة المحاصصة والسعي لتغييب ، فأن المستقبل لا ينبأ بإمكانية نجاح أي مشروع لبناء الهوية الوطنية العراقية مما يعني استمرار الحال على ما هو عليه .

2- الإصلاحية التفاضلية : على العكس من الافتراض الأول الذي يثبت فرضية بقاء الحال على ما هو عليه ، فان هذا الافتراض يبني على أساس حدوث متغيرات وإصلاحات على الوضع القائم قد يحدث تغييرا لتحقيق التحسن في الظاهرة موضوع الدراسة ،مع الهوية الوطنية فان أهم

⁽³³⁾ تقسم الدراسات المستقبلية استشرافه بمدد زمنية ، ومن بينها تصنيف (مونسوتا) الذي صنف المدد ، بعامين كمستقبل مباشر ، ومستقبل قريب لخمس سنوات ، والمتوسط من خمس سنوات إلى عشرين ، والبعيد من عشرين إلى نصف قرن وأخيرا المنظور وهو يتجاوز النصف قرن ، للمزيد ينظر :وليد عبدالحى ،الدراسات المستقبلية في العلاقات الدولية ، مراكش، دار تينمل للطباعة والنشر 1993 ص14-22.

⁽³⁴⁾ سقط في محافظة البصرة التي تشهد نزاعات عشائرية مسلحة بسبب عجز الدولة عن حصر السلاح بيدها نحو 133قتيلا ، وأكثر من 411 جريحا خلال عام 2018 فقط ، ومعظم الخلافات تقع بسبب الأراضي والمياه ، ينظر: سلام الجاف ، النزاعات العشائرية بالبصرة - من المستفيد من استمرارها ، تقرير منشور على شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) الموقع :

عامل لخلق حالة الإصلاح والتعاؤل تبنى على مرتكز الإرادة ، إذ أن إرادة الشعوب قادرة على خلق الواحد من المتعدد ، خاصة وان في العراق مرتكزات التأسيس عديدة ، الوطن والتاريخ واللغة والعيش المشترك لحقب تاريخية موعلة بالقدم ، وحالة التصاهر في المجتمع العراقي سواء بين الطوائف أو الأديان أو القوميات ترسم صورة متقابلة لجواب الهوية ، فضلا عن أن غياب الهوية الوطنية لم يكن بفعل المكونات ذاتها فحسب ، بل بفعل لعبة السياسة وما ترشح منها من تقسيم ، إذ أن معظم دول العالم دولا متنوع ولكنها استطاعت أن تغلب الشعور الوطني والولاء للوطن محل الولاءات الفرعية . ولكن هذه الصورة تتطلب عقلانية في كل سلوك اجتماعي ولأي مكون ، عقلانية حزبية تغادر معها الأحزاب جماهير المكون والطائفة ، عقلانية ناخب يغادر النزعة الاجتماعية والعاطفية لتأسيس برلمان عراقي قوي قادر بالعبور بالشعب إلى ضفة الامن والاستقرار والوحدة ، عقلانية مكونات تتفهم بأنها لا يمكن أن تحقق نتيجة لصالحها وتؤمن بالعيش المشترك والتسامح ، ولعل العقيدة الدينية والقيم الاجتماعية والأعراف جميعها تؤسس للتكافل والتكاتف ، فخسارة الوطن خسارة للجميع ، فضلا عن التمتع بالثقافة السياسية القادرة على بلورة سلوك سياسي يضع العراق أولا . ليتمكن المواطن العراقي من النظر إلى مكونه من خلال العراق ، وببديل النظرة للعراق من خلال المكون ، بمعنى أن يكون الوطن وما له من مستحققات على المواطنين يتقدم على مستحققات المكون ، وهذا يتطلب المواطنة الكاملة التي تتطلب المساواة بين العراقيين بغض النظر عن انتماءاتهم وأحسابهم وأنسابهم في الحقوق والواجبات .

3- التحولي (التشاؤمي) : والذي يبنى على تحولات راديكالية عميقة على الصعد المحلية والإقليمية والدولية ، التي تبنى على أرضية مهينة لتقبل أي حل يضمن للمكونات حالة المساواة ، والأمن والاستقرار المفقودة ، واستمرار الولاءات الضيقة والاحتكام للعامل الخارجي لكسب الداخل وغيرها كلها عوامل تنبأ بحالة التقسيم أو الانفصال وضياع مشاريع الهوية . والمتغير الذي لا يمكن القفز عليه بالاستشراف المستقبلي هو الحراك الجماهيري الذي اثبت إمكانية عبور الطائفية وهذا شعار رفعت كل ساحات الاعتصام ومن الممكن ترجمته إلى واقع ملموس في عملية بناء الوطن ، شريطة أن يضمن المواطن حقوقه وحرية .

التوصيات:

مما تقدم يترشح من البحث جملة توصيات نستطيع إجمالها بالتالي :-

1- تحقيق المساواة بين مكونات الشعب العراقي كافة ، وبما يعزز روح المواطنة والاندماج وتوفير الضمانات القانونية ، للابتعاد عن حصر مؤسسات الدولة لمكون واحد . وفقا لتأمين المصالح وتطمين المخاوف .

2- الاضطلاع بالدور الوطني للإعلام لما له من أهمية في غرس قيم المواطنة والهوية وتنفيذ القوانين التي تجرم خطاب الكراهية أو الحث عليه . واعتماد ما يقرب المواطن من اعتزازه بوطنه. والتوعية على الإفادة من الإعلام والتواصل الاجتماعي الافتراضي ومنع الجدل والسجال التي تغذي الكراهية بين شركاء الوطن .

3- ضرورة أخذ العشائر العراقية الأصيلة دورها في التقريب بين مكونات المجتمع العراقي من خلال المؤتمرات العشائرية الجامعة لها .

4- ضرورة اتسام الخطاب الديني بالتسامح والأخوة الإسلامية والتعايش مع الأديان الأخرى وفقا لما قرره الشريعة الإسلامية السمحة .

5- إن النظام الديمقراطي يعد من أفضل الأنظمة التي أنتجها العقل السياسي شريطة إن يقوم على احترام القانون والتعددية الحزبية الوطنية العابرة (دينية ، طائفية ، قومية) . والتداول السلمي للسلطة وان ذلك مرتبط اشد الارتباط بثقافة الديمقراطية التي يجب أن تعزز في مؤسسات الدولة التعليمية والمؤسسات الأخرى كافة .

6- إعادة بناء الجيش العراقي والمؤسسات الأمنية القادرة على حماية المجتمع من الأخطار الداخلية والخارجية وحصر السلاح بيد الدولة ، وبما يؤمن الانخراط فيه ، للدور الذي يمكن ان يحدثه في التلاحم المجتمعي والاندماج .

7- فتح المجال أمام القطاع الخاص ليأخذ دوره في عملية التنمية وتحقيق الاكتفاء الغذائي وفتح الاستثمار المعزز لقدرات الشباب وتقليل نسب البطالة ومغادرة الاقتصاد الريعي شيئا فشيئا .

مصادر البحث:

1- أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية ، القاهرة ، دار إحياء الكتب العربية ، ط1 1954
2- أحمد غالب شلاه ، الهوية الوطنية العراقية - دراسة في إشكالية البناء والاستمرار ، بغداد ، مركز العراق للدراسات 2018

3- اليكس ميكشيللي، الهوية ، ترجمة علي وطفة ، دمشق . دار الوسيم للنشر 1993
4- إميل بريه ، تاريخ الفلسفة - الفلسفة اليونانية ، ترجمة جورج طرابيشي ، بيروت ، دار الطليعة 1982

5- ايمانويل كانت ، تأسيس ميتافيزيقيا الأخلاق ، ترجمة عبدالغفار مكاي ، القاهرة ، منشورات الجمل 2002

6- بيار كلاستر ، مجتمع اللادولة. ترجمة محمد حسين دكروب. بيروت. الدار العربية للدراسات والنشر . 1981

- 7- حسن العلوي ، دولة الاستعارة القومية من فيصل الأول إلى صدام حسين ، لندن ، دار الزوراء 1993
- 8- حميد فاضل حسن، المواطنة وإشكالية المبادعة بين الأطر النظرية والممارسات التطبيقية ،مجلة قضايا سياسية السنة 2016 ، العددان 45 و46
- 9- حنا بطاطو، العراق - الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية في العهد العثماني حتى قيام الجمهورية -، ترجمة عفيف الرزاز ، الكتاب الأول ، طهران ، منشورات فرصاد ، 2005
- 10- جورج لارين ، الايديولوجيا والهوية والثقافة ترجمة فريال حسن خليفة ،القاهرة .مكتبة مدبولي 2002
- 11- ديكارت ،التأملات في الفلسفة الأولى ، ترجمة ، عثمان أمين ، القاهرة ، المركز القومي للترجمة، 2009
- 12- روبرت ماكيفر وشارلز بيدج. المجتمع. ترجمة د. السيد محمد العزاوي وآخرون. القاهرة. مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر 1971
- 13- روبرت ودفين ، و جودي جروفس . أرسطو . ترجمة إمام عبدالفتاح . القاهرة . المجلس الأعلى للثقافة 2005
- 14- صاموئيل هنتجتون ، من نحن - المناظرة الكبرى حول أمريكا-، ترجمة أحمد مختار الجمال ،القاهرة ، المركز القومي للترجمة 2009
- 15- علي عباس مراد ، حول بعض مشكلات إعادة بناء الدولة في العراق ،بغداد ، بحث منشور في دوار مؤتمر بيت الحكمة (بناء الدولة) 2012
- 16- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني ،معجم التعريفات ،تحقيق محمد صديق المنشاوي ،القاهرة ، دار الفضيلة للنشر والتوزيع (د.ت)
- 17- فارس كمال نظمي ، المحرومون في العراق هويتهم الوطنية واحتجاجاتهم الجمعية ، بيروت ، دار ومكتبة البصائر 2010
- 18- فتح الله ولعلو ، الاقتصاد السياسي ، بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر 1998
- 19- فريد بن بلقاسم ، قضايا الهوية في الإسلام المعاصر ، تونس ، دار سحر 2013
- 20- كاري نادية أمين ، العامل الجزائري بين الهوية المهنية وثقافة المجتمع ،أطروحة دكتوراه غير منشورة مقدمة إلى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة تلمسان الجزائرية 2012
- 21- كاترين هالبيرن ، مفهوم الهوية تاريخه وإشكالاته ، ترجمة اليأس بلكا ، مجلة اتجاهات العدد الأول ، 2008

22- مارتن هايدجر ، الفلسفة ، الهوية والذات ، ترجمة محمد مزيان ، بيروت ، منشورات ضفاف 2015،

23- مصطفى كمال فرحات ، ظروف الكينونة بين ليفيناس وهيدجر ، تونس ، دار السحر للنشر والتوزيع 2006

24- هيجل ، فنومينولوجيا الروح ، ترجمة ناجي العونلي ، بيروت ، المنظمة العربية للترجمة 2006

25- وليد عبدالحى ، الدراسات المستقبلية في العلاقات الدولية ، مراكش ، دار تينمل 1993

المصادر الأجنبية:

1- Kenneth Weahre, Federal Government, Oxford university press 1964

2-Mardi J.Horowits .Self –Identity Theory and Research Methods. Journal Of Research Practice .Vol8 .Issu2.Canda AU press2012

3-Mark R.Leary and June Price Tangany . Hand Book Of Identity. The Guilford Press. New York201

الانترنت:

سلام الجاف ، النزاعات العشائرية بالبصرة – من المستفيد من استمرارها ، تقرير منشور على شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) الموقع :

<https://www.alaraby.co.uk/society>